الفصل الثامن
(حجة الله البالغة) لشاه ولي الله الدهلوي
توفي (١١١٤هـ/ ١٧٦٢م)

محمد أحمد ملكاوي

دكتوراه في العقيدة الإسلامية، أستاذ في كلية الشريعة جامعة اليرموك، الأردن

mmalkawi@yu.edu.jo

المقدمة:

عاش الإمام الدهلوي في الهند، وترك عدداً كبيراً من المصنفات، من أكثرها شهرة كتاب (حجة الله البالغة)، الذي يعد من بين أكثر المؤلفات الإسلامية شهرة في القرن الثامن عشر، لما تضمنه من أفكار إصلاحية في فترة شهدت الهند تراجع إمبراطورية المغول الإسلامية وضعفها، وانتشار الجهل والأمية والتقليد ورفض التجديد، مما استدعىٰ الإمام الدهلوي إلىٰ أن يتصدىٰ للإصلاح الإسلامي، والدعوة إلىٰ الإصلاح والتجديد، والتركيز علىٰ أهمية العقيدة الدينية الصحيحة، وإصلاح العقائد، وإيقاظ روح الإصلاح الشامل للأمة الإسلامية في مختلف مناحي الحياة، وفتح باب الاجتهاد، والدعوة إلىٰ التصوف السني القائم علىٰ الاعتقاد، والعمل بما جاء في الكتاب والسنة، والجمع والتوفيق بين المذاهب الفقهية الأربعة، ونبذ الجمود والتقليد المذهبي الضيق.

أولاً: التعريف بمؤلف الكتاب؛ حياته وتكوينه العلمي، ومؤلفاته الأخرى:(١)

١- حياته وتكوينه العلمي:

هو أحمد بن عبد الرحيم بن وجيه الدين العُمري الفاروقي الدهلوي، شاه وليّ الله أبو عبدالعزيز، يرجع نسبه إلىٰ عمر الفاروق رضي الله عنه، ولد في دهلي بالهند عام ١١١٤هـ / ١٧٠٣م، في أواخر عهد السلطان التيموري أورنجزيب، وتوفي فيها عام ١١٧٦هـ / ١٧٦٢م وله من العمر اثنان وستون عاماً. نشأ في بيت علم وصلاح، وكان أبوه من وجوه مشايخ دهلي وعالماً كبيراً له حظ وافر من العلوم، اشترك في مراجعة الفتاوىٰ العالمكيرية الهندية علىٰ المذهب الحنفي التي أشرف السلطان أورنجزيب علىٰ إخراجها.

تعلّم أحمد في كنف أبيه، ولمّا بلغ الخامسة من عمره أُدخل الكُتّاب، فحفظ القرآن الكريم في السابعة من عمره، ودرس اللغتين العربية والفارسية، وعندما بلغ الخامسة عشرة من عمره قرأ مقررات كثيرة باختيار والده وانتقائها له، منها علوم القرآن والحديث والفقه علىٰ المذهب الحنفي علىٰ أكابر علماء الهند، ودرس الطب والحكمة، والمنطق والفلسفة والحساب، ودرس علم الحديث علىٰ إمام زمانه الشيخ محمد أفضل السيالكوتي، ومال إلىٰ الزهد والتصوف في فترة مبكرة، وتأثر بأخلاق والده وبايعه علىٰ الطريقة الصوفية النقشبندية، وأطلق الناس عليه: «شاه ولي الله»؛ أي ولي الله الكبير. سافر إلىٰ الحج عام ١١٤٣هـ وجاور ببيت الله الحرام إلىٰ أنْ حجّ حجةً ثانية، فكان له مشايخ هناك، وكان للقائه علماء الحرمين الشريفين الذين كانوا من مختلف البلاد الإسلامية الدوْرُ الأساس في تكوين عقليته وثقافته، فقد أفاد منهم في توسيع نطاق فكره وبُعد نظره وآفاقية دعوته وفلسفته ومنهجه؛ إذْ صحب العلماء وتتلمذ علىٰ الشيخ أبي طاهر المدني، فتلقّىٰ منه جميع صحيح البخاري وكتباً أخرىٰ في الحديث النبوي الشريف، ولمّا رجع إلىٰ الهند

عام ١١٤٥هـ عمل مدرّساً للحديث الشريف في مدرسة والده الرحيمية في دهلي، وكانت تعتبر دار العلوم الكبرىٰ، وكان العلماء في عهده مجمعين علىٰ تبحّره في العلم وجمْعه للفضائل والمحاسن، ومنـزلته الروحية العالية وإخلاصه وتجرّده، ورُزق أربعة أبناء وابنة واحدة، فكان أبناؤه وأبناء بنته أركان النهضة الدينية في الهند.

٢- مؤلفاته:

ترك أكثر من (٥٠) كتابًا باللغتين العربية والفارسية، من أشهرها: حجة الله البالغة في أسرار الحديث وحكم التشريع. والإنصاف في بيان أسباب الاختلاف. وعقد الجيد في أحكام الاجتهاد والتقليد. والفوز الكبير في أصول التفسير. وشرْح تراجم الأبواب لصحيح البخاري. وترجم معاني القرآن إلىٰ الفارسية بعنوان: فتح الرحمن في ترجمة القرآن. وإزالة الخفاء عن خلافة الخلفاء. وفتح الخبير بما لا بدّ من حفظه في علْم التفسير. وأنفاس العارفين ويسمّىٰ بوارق الولاية. وتفسير الزهراويْن البقرة وآل عمران. وتأويل الأحاديث في رموز قصص الأنبياء. والتفهيمات الإلهية بالعربية والفارسية. والمصفّىٰ شرْح موطّأ الإمام مالك بالفارسية. والمسوّىٰ شرْح الموطّأ بالعربية. والفضل المبين في المسلسل من حديث النبي الأمين صلىٰ الله عليه وسلم. والإمداد في مآثر الأجداد. وإنسان العين في مشايخ الحرميْن. والجزء اللطيف في ترجمة العبد الضعيف. والقول الجلي. والإرشاد في مُهِمّات الإسناد. وقرّة العينيْن في تفضيل الشيْخيْن، بالفارسية. والبدور البازغة. والمقدِّمة السّنية في انتصار الفِرقة السُّنية. والقول الجميل في بيان سواء السبيل. وأطيب النغم في مدح سيّد العرب والعجم.

ثانياً: التعريف بالكتاب

طُبع الكتاب عدة طبعات، ويقع الكتاب في جزأين في مجلد واحد، وفي الطبعات الحديثة جاء الجزءان في مجلديْن، وفيما يلي الإشارة إلىٰ هذه الطبعات:

(١) طُبع كتاب حجة الله البالغة أولاً بإرشاد من وزير بوفال ومديرها العالم التقي الشيخ جمال الدين، وعلىٰ نفقته، وبعناية الشيخ محمد أحسن الصدّيقي، في المطبعة الصدّيقية ببريلي، في الهند عام ١٢٨٦هـ/ ١٨٦٩م.

(٢) طُبع كتاب حجة الله البالغة بعد ذلك طبعتيْن في مصر سنة١٢٩٤هـ، وسنة ١٢٩٦هـ بأمر أمير الملك العلاّمة السيد صدّيق حسن خان بمطبعة بولاق بمصر.

(٣) طُبع كتاب حجة الله البالغة للمرة الثالثة في مصر بمطابع دار الجيل بالقاهرة، الناشر دار التراث، القاهرة، ١٣٥٥هـ، وكُتب عليه: قام بطبعه ونشْره للمرة الأولىٰ سنة ١٣٥٥هـ جماعة من محبي العلم والإصلاح، راجع أصوله وصححها وقيّد حواشيه بعض فضلاء علماء الهند، وهذه النسخة موجودة بمكتبة جامعة اليرموك، وتقع في جزأين في مجلد واحد من القطع الكبير، ومن دون أية معلومات أخرىٰ إضافية، وتوجد عليها تعليقات وشروح مختصرة في الهوامش في أسفل الصفحات. ينتهي الجزء الأول صفحة ١٩٥، وينتهي الجزء الثاني صفحة ٢١٥، وتوجد بعد الفهرست ترجمة للمؤلف في صفحة واحدة فقط.

(٤) صدرت له طبعة مصورة عن نفس الطبعة المصرية السابقة برقم (٣) بعناية الشيخ عطاء الله حنيف من المكتبة السلفية بلاهور، عام ١٣٩٥هـ / ١٩٧٨م.

(٥) طُبع كتاب حجة الله البالغة، بتحقيق ومراجعة سيد سابق، عدد الأجزاء: ٢، ط١، الناشر: دار الجيل للنشر والطباعة والتوزيع، بيروت، ١٤٢٦هـ / ٢٠٠٥م، عدد الصفحات مع الفهارس في الجزء الأول: ٣٥٩، وعدد الصفحات مع الفهارس في الجزء الثاني: ٣٦٨، مجموع صفحات الكتاب: ٧٢٧ صفحة. وقد صدرت له كذلك طبعة أخرىٰ بتحقيق السيد سابق ومراجعته ومقدمته وترجمة للمؤلف، نشرتها دار الكتب الحديثة بالقاهرة ومكتبة المثنىٰ ببغداد.

(٦) نشرت الكتاب دار إحياء العلوم، بتحقيق محمد شريف سكر، عدد الصفحات ١٠٨٠، عدد الأجزاء٢، الطبعة ٢، ١٩٩٢م.[٢]

(٧) نشرت الكتاب دار الكتب العلمية، بيروت، عدد الصفحات ٧٩٢، عدد الأجزاء ٢.

(٨) نشرت الكتاب مكتبة الكوثر، الطبعة الأولىٰ، عدد الأجزاء ٢، ١٩٩٩م.

(٩) نشرت الكتاب دار المعرفة للنشر والتوزيع، بيروت، عدد الأجزاء ٢.

(١٠) نشر الكتاب محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت، ط٢، ١٤٢٦هـ / ٢٠٠٥م، ضبطه ووضع حواشيه محمد سالم هاشم، ويقع الكتاب في جزأين، الجزء الأول ٣٦٣ صفحة، والجزء الثاني ٣٩٨ صفحة، ولا يوجد مقدمة للناشر ولا للمعلّق سوىٰ بعض التعليقات اليسيرة في الهوامش، وهذه التعليقات اليسيرة منقولة حرفياً عن طبعة دار التراث المصرية المشار إليها سابقاً في رقم (٣) وليس فيها زيادة سوىٰ أنّ محمد سالم هاشم جعل لها عناوين فرعية واضحة تيسّر البحث عن المقصود والعنوان المطلوب.

ثالثاً: محتويات الكتاب[٣]

من استعراضي كتاب حجة الله البالغة، وجدت أنّ الإمام الدهلوي قد جعل كتابه علىٰ قسمين كما يلي:

القسم الأول: قسم القواعد الكلية التي تنتظم بها المصالح المرعية في الشرائع. وينتهي في صفحة رقم ٣٠٠ من المجلد الأول. وقد تناول فيه المباحث التي تثبت الحاجة إلىٰ الهداية الربانية والتعاليم السماوية في عدّة مباحث كما يلي:

المبحث الأول: في أسباب التكليف والمجازاة، وبيّن فيه أنّ تكليف الله لعباده العمل بأحكامه وأوامره والاجتناب عن نواهيه إنما هو أحد المقتضيات الفطرية للنوع البشري.

المبحث الثاني: مبحث كيفية المجازاة في الحياة وبعد الممات، وبيّن فيه أهمية الأعمال، وتأثيرها في الملكات الإنسانية، والآثار التي تترتب عليها في الدنيا والآخرة.

المبحث الثالث: مبحث الارتفاقات، وقصد بها ما يُرتفَق ويُنتفَع ويُستعان به، وبيّن فيه اشتراك أفراد الناس في الانتفاع بعضهم من بعض والتعاون فيما بينهم في العمل والتدابير النافعة لإنشاء حياة مدنية معتدلة، وعالج ناحيتي السعادة البشرية الفردية والاجتماعية، والحياتين الدنيوية والأخروية، وأثبت الصلة العميقة بين علم الأخلاق وعلم الاقتصاد، وأهمية الحياة المدنية الاجتماعية وأشكالها، وصور المكاسب ووجوه المعاش المحمودة والمذمومة.

المبحث الرابع: مبحث السعادة، بيّن فيه أنّ الحصول علىٰ السعادة من أهم حاجات البشر، وبيّن كيفية الحصول علىٰ أصول السعادة الأربعة وموانعها.

المبحث الخامس: مبحث البِرّ والإثم، وهو موضوع الكتاب الأصيل، وتحدّث فيه عن أركان الإيمان وأسرار العبادات والفرائض.

المبحث السادس: مبحث السياسات المِلّية، وتناول فيه وجوه حاجة الناس إلىٰ الأنبياء والرسل وصفات الرسل، وإثبات النبوّة، وميزات أُمّة محمد صلىٰ الله عليه وسلم. وبيّن فيه أنّ إهدار القيم الخُلُقية والإيمانية هو سبب بؤس الإنسان في المدنيتيْن الرومية والفارسية.

المبحث السابع: مبحث استنباط الشرائع من حديث النبي صلىٰ الله عليه وسلم، وفيه أبحاث تتعلق بفهم الحديث الشريف وكيفية تلقّي الشريعة، واختلاف الصحابة في المسائل والفروع، وتعرّض فيه لاختلاف المذاهب الفقهية.

القسم الثاني: في بيان أسرار ما جاء عن النبي صلىٰ الله عليه وسلم تفصيلاً، وقد خصصه لشرح أسرار الأحاديث من أبواب: الإيمان، والاعتصام بالكتاب والسنّة، والطهارة، والصلاة، والزكاة، والصوم، والحج، والإحسان، وابتغاء الرزق، وتدبير المنـزل، وسياسة المدن، والمعيشة.

واستند الدهلوي علىٰ كثير من المصادر من بينها: كتاب الله تعالىٰ وتفاسيره، وحديث الرسول صلىٰ الله عليه وسلم وشروحه، وفقه المذاهب الأربعة، وبالذات الفقهيْن الحنفي والشافعي، ثمّ تدبر الإمام الدهلوي الطويل وتفكيره العميق فيهما، وتفطنه لمكنونات النصوص وروحها، مع الموهبة الربانية التي سمّاها نور التوفيق الإلهي وخلعة المجددية، وعلْم الجمع بين المختلفات.

رابعاً: الأفكار الرئيسة والجهود الإصلاحية والنهضوية التي تضمنها الكتاب

١- الأفكار الرئيسة التي تضمنها الكتاب:

وبالرجوع إلىٰ متن الكتاب وإلىٰ ما كُتب عنه يمكن استنباط الأفكار الرئيسة التالية:

- القرآن الكريم هو أساس الإصلاح والتجديد، والدعوة إلىٰ حِفظه والعمل به ونشْر تعاليمه، وفهمها في ضوء السنّة الصحيحة.

- توضيح أهمية الأحاديث والسنّة النبوية في الفهم الصحيح الواعي للإسلام، وبيان الحاجة إليها في كلّ عصر ومصر، والقيام بنشْرها وترويجها.
- التركيز علىٰ أهمية العقيدة الدينية الصحيحة في الحياة، وإصلاح العقائد بأسلوب التحقيق والتنقيح العلمي بدءاً بمسألة التوحيد، وترجيح مذهب السلف في الاعتقاد.
- سلوك منهج التطبيق بين الحديث النبوي والفقه العملي، والدعوة إلىٰ اتّباع هذا المنهج التوفيقي الوسطي بين الاجتهاد والتقليد، وبذل الجهود في سبيل ذلك.
- عرْض الشريعة الإسلامية في صورة متناسقة مدعمة بالأدلة، للكشف عن مقاصد الحديث الشريف، وعن أسرار الأحكام الشرعية وحِكمها.
- بيان مكانة الخلافة والإمامة ووظيفتها في الإسلام، وشرْح خصائص الخلافة الراشدة بعد رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم، ومميزاتها وإثباتها بالأدلة.
- إيقاظ روح الإصلاح الشامل للأمة الإسلامية في جميع جوانب الحياة، وبيان أنّ الحِسبة فرْضٌ علىٰ مختلف طبقات الأمّة، ودعوة الجميع إلىٰ الإصلاح والتغيير.
- الاجتهاد بشروطه وضوابطه فرْض كفاية لإبراز محاسن الشريعة الإسلامية، فالحاجة إليه قائمة في كل عصر، ومقتضىٰ طبعي للتطورات الحادثة في الحياة الإنسانية والمجتمع والمدنية، ولا يكون ذلك إلاّ بفتْح بابه في المستجدات، والتحذير من القول بإغلاقه.
- الدعوة إلىٰ التصوف السني القائم علىٰ الاعتقاد والعمل بما جاء في الكتاب والسنة، وجرىٰ عليه جمهور الصحابة والتابعين في القرون الأولىٰ المفضلة، وإبراز الجانب الإسلامي السنّي فيه، وتنقيته من شوائب الفلسفات غير الإسلامية، والتحذير من الذين يتعبّدون بعبادات لا أصل لها في السنّة، ويرون أنه لا حاجة إلىٰ ثبوتها بالأحاديث الصحيحة، وبخاصّة أصحاب الطرق الصوفية المنحرفة عن منهج التصوّف السنّي.
- الجمْع والتوفيق بين المذاهب الفقهية الأربعة علىٰ أساس الحديث، وذمّ مسلك المعطِّلين للعقل، إمّا بجمودهم علىٰ التقليد المذهبي الضيّق، وإمّا بوقوفهم عند الظاهر الحرفي للنصوص، وكلا المسلكين ينافي روح الشريعة.

٢- الجهود الإصلاحية والنهضوية التي تضمنها الكتاب، ومدى معالجته لواقع العصر الذي عاش فيه المؤلف:

وأبرز معالم منهجه الإصلاحي تتمثل فيما يلي:

أ- دراسةُ القرآن الكريم وفهمه وتدبّره خطوةٌ أولىٰ ومقدّمة لازمة في جهوده الإصلاحية:

يرىٰ الإمام الدهلوي أنّ الدراسة الواعية للقرآن الكريم هي من أقوىٰ الطرق وأكثرها تأثيراً لعلاج أمراض المجتمعات وإصلاحها، وأنّ الجهود الإصلاحية لا تؤتي أُكُلها بالابتعاد عنه؛ إذْ لا يوجد في كلام أحد من التأثير والنفوذ ما يوجد في كلام الله تعالىٰ، وهذه الحقيقة يشهد عليها تاريخ عهد البعثة النبوية وتاريخ كلِّ الدعوات الإصلاحية والتجديدية في الإسلام، فلا يُتصوّر طريقاً أقوىٰ وأصْرح وأكثر تأثيراً في النفوس وجذْباً للقلوب من القرآن الكريم الذي يقوّي الصلة بالله تعالىٰ، ولذلك بدأ الإمام الدهلوي منهجه الإصلاحيّ بعمل ترجمة لمعاني القرآن الكريم باللغة الفارسية، والتي تمّت وطُبعت باسْم: فتح الرحمن، عام ١١٥١هـ، ونُشرت عام ١١٥٦هـ قبل وفاته بعشرين عاماً. ولم يقتصر في جهوده الإصلاحية علىٰ ترجمة القرآن، بل صار يُلقي الدروس في التفسير التحليلي لآيات الأحكام مع ربطها بالسنّة والفقه العملي، فكانت ترجمته ودروسه المنهجية المنظّمة مأثرة تجديدية وإصلاحية لم يُسبق إليها.(٤)

ب- التركيز علىٰ بعث علْم الحديث النبوي الشريف والاهتمام بدراسة علومه وتدريسها:

بلغت قلة العناية بالحديث الشريف في عهد الإمام الدهلوي مبلغاً كبيراً، ولم تستطع الجهود الفردية لبعض المشايخ أنْ تُحْدث الإقبال المطلوب علىٰ دراسة الحديث الشريف والاهتمام به، ومن أبرز العوامل في ذلك تعصب مشايخ الهند للمذهب الحنفي، فكان مَن درَس الحديث أو درّسه فإنما يهدف إلىٰ تأييد المذهب بالحديث الشريف أو لتحصيل البركة بقراءته لا لفهمه والعمل به، فلا يَعْرضون الفقه علىٰ الحديث الذي هو ميزان عادل لاستقامة الأمّة وانحرافها، ولا يتأتىٰ الاعتدال الكامل في الأخلاق والأعمال

إلا بالجمع بين القرآن والحديث، الذي يملأ الفراغ الحاصل بانتقال الرسول صلىٰ الله عليه وسلم إلىٰ الرفيق الأعلىٰ.

وقد أدرك الإمام الدهلوي هذا الخلل، فأكّد في منهجه الإصلاحي علىٰ أنّ دراسة علوم الحديث النبوي ومعرفتها ضرورية للعلماء المصلحين، وصرف وقتاً كبيراً في العناية بها، وحثّ علىٰ تدريسها وإنشاء المدارس وترتيب المناهج الدراسية الخاصة الموفية بهذا الغرض، فأخذ هذا الفن الشريف مكانه اللائق في الأنظمة والمناهج التعليمية، والنشاطات العلمية والتأليفية في الهند، فأثمرت جهوده المباركة حركة جديدة نشطت في دراسة الحديث وتدريسه، فلقد كانت الأوساط العلمية والدينية في الهند بانتظار المجدد الذي يجعل نشْرَ الحديث الشريف أول أهدافه في الحياة، لقد وُجد هذا المجددُ الإمامُ وليُّ الله الدهلوي في أواسط القرن الثاني عشر الهجري، ومؤلفاته في هذا الموضوع تمتاز بالدقة والاجتهاد والتحقيق، وتعدّ فصلاً مضيئاً مهماً في صحيفة تجديده.(٥)

ت- الاهتمامُ بالعقيدة الإسلامية الصحيحة أساسُ الحياة الإنسانية والمدنية الصالحة:

العقائد السليمة سمة هذا الدين الأولىٰ، وإنّ أيّ تغيير وإصلاح لا قيمة له إذا لم يقترن بالعقيدة القائمة علىٰ معرفة الله وصفاته وأفعاله، وكان منهج الإمام الدهلوي الإصلاحي يقوم علىٰ الجادة المتوسطة بين التأويل واللفظية في باب الأسماء والصفات، ويركّز علىٰ أنْ يتمسك المسلم فيها بمنهج المتقدمين من أهل السنة، ويُعرض في باب الصفات والآيات المتشابهات عن الخوض في المسائل التي لم يخض السلفُ في تفصيلها، وأنْ لا يسلك مسلك الإعجاب والاندهاش بالفلسفة اليونانية الذي بلغ ببعضهم حدّ العبوديةِ العقلية والاستخفافِ بمسلك السلف ومنهجهم، ومن هنا جاءت الحاجة إلىٰ إصلاح العقائد بدْءاً بشرح عقيدة التوحيد والدعوة إليها من جديد، فكانت هذه الجرأة النقدية العلمية إحدىٰ مآثر الإمام الدهلوي وأعماله الإصلاحية والتجديدية في مجتمعه وواقع عصره الذي لقيت فيه العقائد والتقاليد الشركية رواجاً بين عامة المسلمين باختلاطهم مع غير المسلمين، وبنفوذ الحكومة الباطنية الإسماعيلية وتأثيرها في انتشار تعليمات الجهلة من الصوفية، وبخاصة أنّ الهند أكبر معقل للوثنية، فلمّا انتقل عدد كبير من سكانها من البرهمية والديانات الشركية الأخرىٰ إلىٰ حظيرة الإسلام، انتقلوا حاملين العقلية الهندوسية الوثنية، فسهل دخول الزيغ والانحراف العقدي في كثير من الأسر والبيوتات، ولو لم تكن للإمام الدهلوي وأخلافه مأثرة غير هذا التجديد لعقيدة التوحيد بتنقيحها من عوالق الشرك، وشرْحها ونشرها في ضوء الكتاب والسنة وعلىٰ منهج السلف الصالح لكفىٰ ذلك في عدّه من المجددين في هذه الأمة.(٦)

ث- التمكّنُ في العلوم الشرعية ومعرفةُ أسرارِ الأحكام الشرعية وتضمُّنِها مصالحَ العباد أمرٌ أساسيٌّ في الجهود الإصلاحية:

يرىٰ الإمام الدهلوي أنّ الناس وحدهم قد لا يفطنون لحكمة الشرع، وأنّ الأحكام معلّلة بالمصالح، وبخاصّة أنّ بعض المسائل حِكمها خفية، فركّز جهوده علىٰ عرْض نظام الإسلام وتشريعه الشامل المتناسق بطريق يثبت علاقته بالحياة والمدنية الصالحة، وعلىٰ ضرورة تنفيذ الأحكام الإسلامية المتعلقة بكلّ مظاهر الحياة الاجتماعية، ومن دون ذلك لا يبقىٰ أيّ أمل في قيام مجتمع صالح ومدنية صالحة متزنة عادلة، ولهذا اهتمّ في منهجه الإصلاحي ببيان مقاصد الشريعة وأهدافها بطريقة علمية تحقيقية، فجاءت جهوده شرْحاً عِلمياً وتفسيراً عملياً للإسلام. وكان كتابه: حجة الله البالغة من جلائل أعماله الإصلاحية؛ إذْ كشف فيه عن أسرار الشريعة وتضمّنها مصالح جميع الخلْق، وعرض فيه الدين وشرائعه في صورة جامعة متناسقة مدعمة بالأدلة الناصعة، فكان هو أجدر شخصية وأقدرها علىٰ الكتابة في هذا الموضوع الدقيق الخطير.(٧)

ج- اختيار طريق الفقهاء المحدّثين للتوفيق بين المذاهب الفقهية وبين الحديث:

لقد كان الفقه والحديث في كثير من الأوساط العلمية في العالم الإسلامي يسيران في خطّيْن متوازييْن لا يلتقيان، وكان كل واحد منهما يقطع طريقه في غنىٰ عن الآخر فلا يجتمعان، ولم يكن يُبحث في الحديث في كثير من المذاهب الفقهية إلاّ إذا كانت مسألة فقهية تحتاج إلىٰ تأييد من حديث،

أو دفع اعتراض، أو لترجيح مذهب علىٰ آخر، فلم تكن هناك محاولة لإعادة النظر في المسائل الفقهية نفسها ولا التوفيق بينها وبين الحديث، فتكونت للمذاهب الفقهية نظريات وقوالب من حديد، يستحيل مَدّها وبسْطها، وكان أتباع كل مذهب قد عبّروا عن مذهبهم بقولهم: مذهبنا صواب يحتمل الخطأ، ومذهب غيرنا خطأ يحتمل الصواب، فاتسع بينهم الخلاف وانجرّوا إلىٰ التباغض، والمخاصمة والمقاتلة، علْماً أنّ الأُمّة أجمعت علىٰ قبول المذاهب الأربعة، وأنّ الحق دائر فيها، وأنّ أئمتها هم أئمة الهدىٰ وقادة الأمة.[٨]

وهذه المحاولة للجمع والتوفيق بين الفقه والحديث، والجمع بين المذاهب علىٰ أساس الحديث، لم توجد في شبه القارة الهندية قبل الإمام الدهلوي، بسبب أنّ الفاتحين والمؤسسين للحكومات فيها كانوا من الأصليْن التركي والأفغاني، وكلاهما يحتضن المذهب الحنفي وينشط للدفاع عنه ونشره، فلم يقدّر للمذاهب الأخرىٰ أنْ تدخل البلاد.[٩]

لقد كان الإمام الدهلوي مطلعاً علىٰ خصائص المذهب الحنفي بحكم نشأته وتعليمه، وظهرت في أثناء دراسته سعةُ أُفقه، وميْله الطبعي إلىٰ الجمع والوصل، وحبُّه للاتزان والنـزعة التطبيقية التوفيقية، ثمّ رحل في الثلاثين من عمره إلىٰ الحجاز وهو يحمل الاتجاه إلىٰ التوفيق بين الفقه والحديث، مع ترجيح مسلك المحدِّثين الفقهاء، واختياره منهجاً له في حياته، فالتقىٰ في الحرمين الشريفين بالعلماء الذين يمثّلون جميع المذاهب الفقهية، فتهيأت له الفرصة للاضطلاع بدراسة مقارنة علىٰ الأصول والقواعد الفقهية للمذاهب الأربعة من علمائها، وكان يُثْني علىٰ الأئمة الأربعة وعلىٰ فقههم، ولا يزدري أحداً من العلماء، فالكلّ طالب للحق، والميزان في معرفة الصواب هو القرآن علىٰ تأويله الصريح، ومعروف السنّة، لكنه انتقد الفقهاءَ الغلاة والفرقةَ الظاهرية انتقاداً شديداً، فكان هذا المنهج التوفيقيّ الموفّق بين الفقه والحديث والذي سمّاه: طريق الفقهاء المحدِّثين، ثمّ محاولة التوفيق بين المذاهب الأربعة، مأثرةً عظيمةً من مآثر الإمام الدهلوي التجديدية في منهجه للإصلاح والتغيير، وخدمةً جليلة من خدماته الإصلاحية لواقع عصره.[١٠]

ح- الحاجة إلىٰ التقليد وإلىٰ الاجتهاد قائمة في كل عصر مع التوسط والاعتدال بين التقليد والاجتهاد:

إن من مميزات الإمام الدهلوي الموهوبة والتجديدية، ذلك المسلك المتزن المتوسط بين الاجتهاد والتقليد لمعالجة واقع عصره، فقد كان هناك فريق يحرّم التقليد ويكلّف كلّ مسلم بالعمل وفق الكتاب والسنة، واستفادة الأحكام الشرعية منهما مباشرة، وهو تكليف بما لا يطاق وغير عملي، وكان فريق آخر قد أغلق باب الاجتهاد وأوجب علىٰ جميع المسلمين التقليد، ووصف كلُّ فريق الفريقَ الآخرَ بالفسق والضلال، وتناسىٰ الفريقان أنّ التقليد والاجتهاد إنما هما طريقة تنظيمية إدارية لصيانة الشرْع من الهوىٰ، ولحماية المجتمع المسلم من الفوضىٰ والاضطراب، ووسيلة لإيجاد الوحدة والنظام في الحياة الدينية العملية، ولتيسير العمل بالأحكام الشرعية، ولكن جعل كلّ فريق هذا العمل التنظيمي بمنـزلة التشريع، ونقَلَه من كونه مذهباً فقهياً ومسألة اجتهادية إلىٰ كونه نصاً ظاهراً، تحْرم مخالفته، فكان المنهج الذي اختاره الإمام الدهلوي هو الأقرب إلىٰ روح الشريعة، والأكثر انسجاماً مع منهج القرن الأول، والأوفق بالفطرة البشرية وبالحياة العملية، فقد بيّن الصورة المشروعة للتقليد، ونادىٰ بفتح باب الاجتهاد لحاجة العصر، واستدلّ علىٰ منهجه الوسطي المعتدل بينهما بأقوال الأئمة الأربعة، ودافع عن رأيه بأنّ الشخص المقلِّد لا ينوي في حقيقة الأمر إلاّ اتّباعَ صاحبِ الشريعة وسنّتِه والاقتداءَ به صلىٰ الله عليه وسلم، وردّ علىٰ فريقيْ الغلوّ والتطرّف بأدلّة مقنعة، وبيّن ميزات المذاهب الأربعة.[١١]

وهكذا كان من سمات منهج الإمام الدهلوي في ترويج جهوده الإصلاحية اختياره ذلك الموقف المعتدل المتزن بين الاجتهاد والتقليد الذي يوافق مقاصد الشريعة والفطرة البشرية وينسجم معهما انسجاماً كلياً، واشترط في المقلِّد النية الصالحة في اتّباع صاحبِ الشرع صلىٰ الله عليه وسلم، كما اشترط للاجتهاد شروطه المعروفة عند العلماء، فالاجتهاد في كلّ عصر هو مقتضىٰ التطورات الحادثة في الحياة الإنسانية والمجتمع والمدنية والحاجات البشرية، ولإثبات ربّانية الشريعة الإسلامية وسعتها، وأنها تملك صلاحية قضاء جميع المتطلبات المشروعة للمجتمع

البشري وهداية الناس وإرشادهم، وهذا الأمر لا بد من إثباته والتظاهر به في كل عصر، وهو واجب من واجبات حملة الشريعة الأمناء، إلاّ أنه ركّز في وصاياه على قضية الجمْع بين الفقه والحديث، وترجيح طريق الفقهاء المحدّثين.[١٢]

خ- استغلال كفاءات العلماء لضمان توسيعِ دائرة التجديد وتنوّعِه واستمراريتِه:

فقد وفق الله تعالى الإمام الدهلوي لتحقيق أعمال ومآثر جليلة أنجزها في التجديد وإصلاح الأمّة في مجالات متنوعة تشمل العلْمَ والعملَ، وجميعَ الطبقات ومختلف جوانب الحياة الاجتماعية، وبخاصة أنّ عمله التجديدي جاء في عهد الاضطراب السياسي واحتضار الدولة المغولية، فكان يقوم بتربية العلماء الراسخين، وإنشاء ملكة الفهم والتدبر للقرآن الكريم، وتخريجهم حتى يقوموا بعده بهذا العمل التجديدي في التغيير والإصلاح، ونشْر الدين الصحيح، ونقله إلى الأجيال القادمة، مع المحافظة على الخطوط العريضة لمنهجه وثوابته الأساسية، فاستطاع هؤلاء العلماء الذين كانوا بدورهم محدِّثين ومدرِّسين ومؤلِّفين أنْ يتحصّنوا بالمقاومة الداخلية في المجتمع المريض؛ وذلك بالإرشاد إلى طرائق الحق والاعتقاد السليم، وإصلاح القلوب وتزكية النفوس، بالعلْم والعمل، والاشتغال بالتدريس والتأليف، وأنْ يستمرّوا بهذه الجهود بعد وفاته.[١٣]

خامساً: الإضافات الفكرية للإمام الدهلوي في كتابه حجة الله البالغة

١- التكليف هو إحدى المقتضيات الطبيعية للنوع البشري، فإن الإنسان يسأل بلسان استعداده وصلاحيته أنْ يفرض عليه ما يناسب قوّته الخاصة، ثم يثاب عليه، ويحرم عليه الاستغراق في القوة البهيمية المودعة فيه، ويعاقب عليه.

٢- خلْقُ الملائكة ووقوعُ الحوادث العظيمة وإرسالُ الرسل تلبيةٌ للمطالب الفطرية في الإنسان، ومظهرٌ رائع للعناية الإلهية بهذا النوع الذي يشمل نوع البشر كلهم، وهو من تجليات الربوبية والرحمة الإلهية، فكان فرْض العبادات والقربات والعمل بالشرائع من المقتضيات النوعية للنوع البشري.

٣- استعمل كلمتيْن هما: التجاذب والاصطلاح، وقصد بهما أنّ اختلاف الجبلة والطبائع في بني البشر ينبني عليه اختلاف وتفاوت في الأعمال والأخلاق ودرجات الفضل والكمال. وتوجد ثمانية صور لاجتماع الملَكية والبهيمية، ونسبتها في الغلبة والضعف ونوعية العلاقة بينها.

٤- استخدم الإمام الدهلوي مصطلح: الارتفاقات، الذي لم يستخدمه أحدٌ قبله من المتكلمين والفلاسفة وعلماء الاجتماع، وقسّمها إلى أربعة أقسام:

أ- الارتفاق البدائي الضروري الذي يتمكن منه أهل البادية.

ب- الارتفاق الاجتماعي الراقي الذي يحصل لأهل المدينة.

ت- الارتفاق السياسي والإداري.

ث- الارتفاق بالخلافة العامة.

وأكد في الارتفاق الرابع على أنّ الحاجة إلى حفظ العلاقات المشتركة بين أهل الأقاليم البعيدة، كالحاجة إلى حفظ العلاقة بين أفراد مدينة واحدة في حالتها البدائية المحدودة.

٥- النظام التكويني في العالم والحياة البشرية، يقتضي وجود هيئة اجتماعية صحيحة ومدنية صالحة، ويلزم أنّ النظام التكويني يوافق النظام التشريعي، وأنْ يمدّه ويتعاون معه، ويخدم أغراضه ومقاصده.

٦- الإمام الدهلوي من بين الرواد الذي أثبت وجود صلة قوية بين الأخلاق والاقتصاد، وعندما تنقطع هذه الصلة فإنّ الاقتصاد والأخلاق يعاني كلٌّ منهما أزمة شديدة تترك آثارها على الدين والحياة المطمئنة الآمنة، والعلاقات الطيبة بين الناس، وعلى المدنية والحضارة. ويرى أن أخلاق الناس الاجتماعية تعاني من الهبوط والفساد عندما يؤدي بهم الجور والعسف إلى ضائقة اقتصادية، فيحرمون من جميع السعادات ومدارج الرقى والكمال.

٧- يستعمل الدهلوي كلمتيْ المدينة والمدنية بمعنى مترادف، ويعرّفهما - المدنية والمدينة - تعريفاً علمياً لم يسبق إليه

فيقول: المدنية جماعة متقاربة تجري بينهم المعاملات، ويكونون أهل منازل شتىٰ، والمدينة شخص واحد من جهة ذلك الربط، مركب من أجزاء وهيئة اجتماعية. ويعرّف سياسة المدنية فيقول: هي الحكمة الباحثة عن كيفية حفظ الربط الواقع بين أهل المدنية أو المدينة.

٨- الغفلة عن الجرائم الخلقية والتغاضي عنها، واحتمال تلك الأفعال التي لا يتحملها أصحاب الفطرة السليمة لأنفسهم، تلحق الأضرار البالغة بالمدنية، وتكون من أسباب سقوط الدول والحكومات.

٩- السعادة عند الدهلوي لها أربعة أصول، وهي: الطهارة البدنية التي تعد الإنسان للتوجه إلىٰ الله تعالىٰ، والعلاقة به - الإخبات إلىٰ الله تعالىٰ-، السماحة، وهي مكارم الأخلاق ومعالي الأمور، العدالة، وهي ملكة في النفس تصدر عنها الأفعال التي يقام بها نظام المدينة والحي بسهولة.

١٠- الحُجب التي تمنع وتحول دون ظهور الفطرة الأصلية ثلاثة: حجاب الطبع، وهو غلبة الأهواء والمتطلبات البشرية النفسانية. وحجاب الرسم، وهو تأثير البيئة والظروف الخارجية الضارة. وحجاب سوء المعرفة، وهو تأثير التعليم والتربية والعقائد الفاسدة.

١١- أعظم الأنبياء شأناً من كانت بعثته مقرونة ببعثة أخرىٰ، فله بِعثتان، أيْ أن أمّةً بأسرها تُبعث مع بعثته، ويناط بها واجب الدعوة والتبليغ، فتكون بعثة النبي بالأصالة، وهي التي تسمّىٰ النبوة، وتكون بعثة الأمّة بالنيابة، أيْ في تولّيها خدمة الدعوة وتبليغها، وقد كانت بعثة سيدنا محمد صلىٰ الله عليه وسلم هذه البعثة الجامعة المقرونة، التي قامت أمّةٌ بأسرها لتكون آلةً وجارحةً تشتغل في خدمة مسؤولية النبوة ونشر دعوتها ورسالتها.

١٢- شُرع الجهاد لتحقيق النظام المطلوب لدىٰ خالق الكون، ولتحقيق أهداف خلْق الكائن الإنساني وغاياته، وإنّ أتم الشرائع وأكمل النواميس هو الشرع الذي يؤمر فيه بالجهاد.

١٣- لا بدّ للدين والأخلاق الصالحة والمجتمع الصالح والمدنية الصحيحة والحياة الإسلامية من قوّة سياسية صالحة تتمثّل في حكومة مستقلّة حرّة، وأنْ يكون المسلمون قوّة مؤثّرة في الأمر والنهي علىٰ مستوىٰ العالَم كلّه.

١٤- يجب عند سياسة الأمّة أنْ يُجعل لكل شيء من الطاعات حدّان، أعلىٰ وأدنىٰ، فالأعلىٰ هو ما يكون مفضياً إلىٰ المقصود منه علىٰ الوجه الأتمّ، والأدنىٰ هو ما يكون مفضياً إلىٰ جملة من المقصود.

لقد ترك كتاب حجة الله البالغة للإمام الدهلوي تأثيراً عميقاً في الجهود الفكرية والإصلاحية اللاحقة، ويجمع العلماء علىٰ تبحّره في العلم وجمْعه للفضائل، وعلىٰ أنّ كتابه حجة الله البالغة فريد في موضوعه، وزاخر بالنكات العلمية المثيرة والإشارات النادرة اللطيفة، وعمق الاستنباط ودقته، بحيث يتوصل به كل منصف سليم الفكر إلىٰ أنّ علمه نابع من الموهبة الربانية ونور التوفيق الإلهي.(١٤)

ولا شكّ في أنّ كتاباً شهد العلماء له ولمؤلِّفه بمئات الشهادات لجدير بأنْ يستفيد منه المفكرون اللاحقون في مؤلّفاتهم، وأنْ يكون له التأثير الواضح في الحركات الإصلاحية التي جاءت بعده. و لم تخْلُ الهند من المصلحين، فقد ظهر فيها عدد من الأفذاذ والنوابغ الذين تحصّنوا بالمقاومة الداخلية في مجتمع مريض؛ يزينون مجالس الطريقة والسلوك، ويرشدون إلىٰ طرائق الحق والاعتقاد السليم، فيصلحون القلوب ويزكون النفوس، بالعلْم والعمل، فاشتغلوا بالتدريس والتأليف، فدرّسوا وألّفوا، وأسسوا الحركات العلمية، ووضعوا المناهج التعليمية والتربوية، فاعتزّت بهم البلاد والأمصار.(١٥)

في طليعة العلماء الذين أَثنوا علىٰ الإمام الدهلوي شيخه أبو طاهر محمد بن إبراهيم المدني؛ فقد قال عنه: "إنه يُسْند عنّي اللفظ وكنتُ أصحّح منه المعنىٰ، أوْ كلمة تشبه ذلك، وكَتْبها فيما كُتب له، وهذا يَقْرب من قول البخاري في أبي عيسىٰ حين قال له: "ما انتفعتُ بك أكثر مما انتفعتَ بي". وليس وراء هذا مفخرة ترام، ولا فوقها منقبة تتمنّىٰ". وذكر الندوي أنه وجد زعيم المغرب العلاّمة علاّل الفاسي المغربي مؤلف كتاب: (مقاصد الشريعة الإسلامية ومكارمها)، والمرحوم الأستاذ محمد المبارك، من بين العلماء

والباحثين المعاصرين العرب الذين يشيدون بكتاب حجة الله البالغة أيما إشادة، ويلهجون بالثناء عليه، وقد كانا معجبيْن بهذه الناحية بصفة خاصة، وهي أنّ هذا الكتاب يجمع بين شُعب الدين كلّها، حتىٰ إنه يمثّل عن تهذيب الأخلاق وتزكية النفس والإحسان تمثيلاً كاملاً رائعاً.(١٦)

ووصفه الإمام الندوي بأنه علم الكلام الجديد الذي يجد فيه أيُّ إنسان يريد الحق مع سلامة الفطرة وطيب القصد إرواءً لغليله، وزاداً كافياً لقناعته. ولم يؤلّف - في حدود علْم الإمام الندوي - وفي اللغات التي يعرفها في تأييد أي ديانة من الديانات وتفسيرها اللبق الحكيم وفلسفتها الجامعة المتناسقة كهذا الكتاب في منـزلته ومكانته.(١٧)

وذكر العلاّمة شبلي النعماني، في كتابه (علم الكلام) أنّ الانحطاط العقلي الذي أصيب به المسلمون بعد ابن تيمية وابن رشد، لم يكن قد أبقىٰ أملاً، نظراً إلىٰ الانحطاط العام في ظهور نابغة يملك القلب البصير. لكنْ أبت القدرة الإلهية إلاّ أنْ تتجلّىٰ، فإذا بالإمام ولي الله الدهلوي يولد في العهد الأخير الذي كان الإسلام فيه في محنة وأزمة عقلية علمية، وقد تضاءلت أمام دقائقه ونكاته مآثر الغزالي والرازي وابن رشد. وبما أنّ الإمام الدهلوي لم يؤلِف في علْم الكلام كتاباً مستقلاً، لذلك لا يناسب عدّه في زمرة المتكلمين، ولكن كتابه: حجة الله البالغة، الذي كشف فيه عن أسرار الشريعة وحقائقها، هو روح علم الكلام ومحوره.(١٨)

وذكر الشيخ عبد العزيز ابن الإمام الدهلوي في كتابه إلىٰ أمير حيدر البلكرامي أنّ أباه: بيّن وجوه أسرار الشريعة علىٰ أحسن وجه في كتابه حجة الله البالغة، الذي هو عمدة تصانيفه في علْم أسرار الحديث، ولم يتكلّم في هذا العلْم أحد قبْله علىٰ هذا الوجه من تأصيل الأصول وتفريع الفروع، وتمهيد المقدّمات والمبادئ واستنتاج المقاصد منها، وإنما يُستنسم نفحات قليلة من هذا العلْم في كتاب إحياء علوم الدين للغزالي، وكتاب القواعد الكبرىٰ للشيخ عز الدين بن عبد السلام المقدسي، ومن نعم الله تعالىٰ عليه أنْ ألْهمه الجمْع بين الفقه والحديث وأسرار السنن ومصالح الأحكام، وسائر ما جاء به النبيُّ صلىٰ الله عليه وسلم من ربّه عزّ وجلّ، فأثبت عقائد أهل السنّة بالأدلّة والحجج الباهرة، وتكلّم في علْم الإبداع والخلْق والتدبير وعلْم استعداد النفوس الإنسانية لجميعها، مع الربْط بالحكمة العملية والتوفيق لتشييدها بالكتاب والسنّة، والتمييز بين المنقول والمحرّف المدخول، والتطهير من قذئ أهل المعقول.

وفي حديث القَنّوْجي عن التجديد في الدين وضوابطه يقول عن المجددين: "وهم أمثال الشاه وليّ الله المحدِّث الدهلوي والمولىٰ محمد إسماعيل الشهيد... فأولئك فرسان هذا الميدان»، وأثنىٰ عليه الشيخ شرف الدين محمد الحسيني الدهلوي في كتابه: الوسيلة إلىٰ الله، حيث يقول: «فأصيبت المصيبة، واستطارت البلية كلّ الجهات، حتىٰ إنّ الزنادقة والملاحدة تستّروا في زيّ الصوفية، وتطاولت أيديهم بعبارات القرآن العظيم والأحاديث النبوية، وحملوها علىٰ غير المراد، فضلّوا وأضلّوا، فاقتضىٰ التدبير الكلّي والحكمة الأزلية أنْ تظهر حقيقة الحقائق الجامعة المميّزة بين العلوم ومراتبها، فهو يقنّن قوانين ويدوِّن قواعد يحصل بها الامتياز التامّ بيْن العلوم كلّها من التفسير والحديث والفقه والكلام والتصوّف والسلوك، فيُنـزل كلّ علْم منـزلته، ومن كان لطْف قريحة وطالع مصنفاته الشريفة وتحقق بقواعدها وقوانينها خصوصاً كتاب حجة الله البالغة، لم يبق له ريبة في تصديق هذا المطلب." باختصار.

وأثنىٰ عليه الشيخ غلام علي العلوي الدهلوي في المقامات، وذكر أنّ شيخه مرزا جانجانان العلوي الدهلوي كان يقول: "إنّ الشيخ ولي الله قد بيّن طريقة جديدة، وله أسلوب خاصّ في تحقيق أسرار المعارف وغوامض العلوم، وإنه ربّانيّ من العلماء، ولعلّه لم يوجد مثله في الصوفية المحققين."

وأثنىٰ عليه محسن بن يحيىٰ الترهتي في اليانع الجنيّ، وذكر أنّه سمع شيخه العلاّمة فضل حقّ بن فضل إمام الخيرآبادي مرتين يُثْني عليه فيحسن الثناء، وأنّ الخيرآبادي كان مولعاً بمطالعة كتاب الدهلوي: (إزالة الخفاء)، وأنه قال في مجمع الناس: "إنّ الذي صنّف هذا الكتاب لبحْرٌ زخّار لا يُرىٰ له ساحل، هذا وليس يقع فيه إلاّ جاهلٌ غبيٌّ من الجهال لا يرجىٰ أنْ يستطبّ ما به من دائه العضال، أو حاسدٌ يحسده علىٰ ما أكرمه الله تعالىٰ به مِنْ علْية الخصال، وجلية سجايا الشرف والكمال"، وأثنىٰ عليه المفتي عناية أحمد الكاكوروي

فقال:"إنّ الشيخ وليّ الله مثله كمثل شجرة طوبىٰ أصلها في بيته وفرْعها في كلّ بيت من بيوت المسلمين، فما من بيت ولا مكان من بيوت المسلمين وأمكنتهم إلاّ وفيه فرْع من تلك الشجرة لا يَعرف غالب الناس أين أصلها".

وأثنىٰ عليه أبو الطيب السيد صديق حسن القنوجي، فقال: "وللشيخ وليّ الله المحدِّث رضي الله عنه قواعد عجيبة وفوائد غريبة لفهم معاني الأحاديث ودفع التعارض من بينها، وحصول ملكة التمييز لأحد ما بين صحيح الحديث وسقيمه، واستقامةُ الذهن وسلامةُ الطبع وعدمُ الميْل إلىٰ الخطأ وقبولُ الصواب بقليل التنبيهِ والإيماءِ نعمةٌ عظمىٰ ودولةٌ كبرىٰ."(١٩)

وقال أيضاً: "ثم جاء الله سبحانه وتعالىٰ من بعدهم بالشيخ الأجلّ ولي الله بن عبدالرحيم الدهلوي، وكذا بأولاده وأولاد أولاده الأمجاد، فعاد بهم علمُ الحديث غضّاً طرياً، وقد نفع الله بهم وبعلومهم كثيراً من عباده المؤمنين، ونفىٰ بسعيهم المشكور من فتن الإشراك والبدع ومحْدَثات الأمور في الدين ما ليس بخاف علىٰ أحد من العالمين. فهؤلاء الكرام قد رجّحوا عِلْم السنّة علىٰ غيرها من العلوم، وجاء تحديثُهم حيث يرتضيه أهْلُ الرواية، شهدت بذلك كتبهم وفتاواهم، إنّ الشاه ولي الله المحدِّث الدهلوي قد بنىٰ طريقته علىٰ عَرْض المجتهَدات علىٰ السنّة والكتاب، وتطبيق الفقهيات بهما في كل باب، وقبول ما يوافقهما من ذلك، وهذا هو الحق الذي لا محيص عنه، وكذا ابن ابنه المولىٰ محمد إسماعيل الشهيد اقتفىٰ أثَر جدِّه في قوله وفعله جميعاً، وتمّم ما ابتدأه جدُّه، و لم يكن ليخترع طريقاً جديداً في الإسلام كما يزعم الجهال، بل هم بيت علم الحنفية، وقدوة الملّة الحنيفية، وأصحاب النفوس الزكية، تمسّكوا عند فساد الأُمّة بالحديث والقرآن."(٢٠)

وقال القنوجي أيضاً: "علم تبيين المصالح المرعية في كل باب من الأبواب الشرعية، هو علم يُعرف به حكمة وضع القوانين الدينية بأسرارها، وفي هذا العلم كتاب: حجة الله البالغة، للشيخ الأجلّ أحمد ولي الله بن عبدالرحيم العمري الدهلوي، وقلّ مَن صنف فيه، كيف ولا تتبين أسراره إلاّ لمن تمكّن في العلوم الشرعية بأسرها، و لم أعرف أحداً آتاه الله منه حظّاً إلاّ صاحب الحجة؛ فإنه تفرّد في التأليف في هذا العلم وهدىٰ الناس إلىٰ المحجة."(٢١)

ترجم الإمام الدهلوي القرآن الكريم إلىٰ الفارسية، ثمّ قام ابنه الشيخ عبد القادر الدهلوي (توفي ١٢٣٠هـ) بترجمته إلىٰ اللغة الأُردية، فأتمّها عام ١٢٠٥هـ، قال الندوي عن هذه الترجمة:"ليس في علْمنا محاولة نقل معاني القرآن الكريم إلىٰ غير العربية بلغت من النجاح والسهولة والجمال وتناولت روح الألفاظ القرآنية إلىٰ الحدّ الكبير ما بلغته هذه الترجمة." ثمّ قام أخوه الشيخ رفيع الدين الدهلوي (توفي ١٢٣٣هـ) -الابن الثاني للإمام- بترجمته إلىٰ اللغة الأردية أيضاً، لكنه راعىٰ ترجمة كلّ لفظة بلفظة، فنالت هاتان الترجمتان قبولاً ورواجاً كبيراً، فالترجمة الأردية الأُولىٰ تناولت روح الألفاظ القرآنية، والترجمة الأردية الثانية تناولت ظاهرها، فكأنهما مكمّلتان لمهمّة واحدة، ولذلك قال عنهما الندوي:"وقد انتشرت هاتان الترجمتان في بيوت المسلمين، وعمّت قراءتهما مع تلاوة القرآن الكريم انتشاراً لا مثيل له في أيّ كتاب ديني آخر، أمّا فيما يتعلّق بتصحيح العقائد وتبليغ عقيدة التوحيد الخالصة ونشْرها، فلا يُحصَىٰ كم من مستفيد ومنتفع بهاتين الترجمتين، فإنّ عددهم يتجاوز مئات الألوف، والحقّ أنّ أية حكومة إسلامية بوسائلها وأسبابها لا تستطيع أنْ تقوم بما قامت به هذه الترجمات الثلاث في مجال الدعوة والإصلاح، وهي كلها أغصان دوحة شجرة واحدة وفروع شجرة الطوبىٰ، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء."(٢٢)

ووصفه عبد الحي الكتاني صاحب فهرس الفهارس بأنه باعث السنة وعلومها في الديار الهندية، وأول من أقدم علىٰ ترجمة القرآن كاملاً إلىٰ الفارسية، وعلىٰ ترجمته يعوّل مسلمي الهند في معرفة الإسلام حتىٰ اليوم، أحيا الله به وبأولاد بنته وتلاميذهم الحديث والسنّة بالهند بعد مواتها، وعلىٰ كتبه وأسانيده المدار في تلك الديار.(٢٣)

بنىٰ له السلطان محمد شاه مدرسة كبيرة افتتحها بنفسه، واشتهرت باسم: دار العلوم، فتتلمذ عليه مئات من العلماء الذين حملوا علم الإمام الدهلوي، ونشروه بين الناس، وبارك الله في حياته، ورُزق ذرية طيبةً أربعةً من الأبناء وبنتاً واحدة، حملوا العلم وقادوا الجهاد، وأحيوا

السنّة بعد أن كادت تموت، فكان أبناؤه وأبناء بنته وتلاميذه أركان النهضة الدينية في الهند.

وأمّا بالنسبة لدروس القرآن الكريم، فكان هناك الجهد الطويل لتصحيح العقائد وإصلاح الأعمال والأخلاق عن طريق إلقاء دروس القرآن الكريم العامة، وشرحه وتفسيره شفوياً، وقد قام بذلك أكبر أبناء الإمام، والمضطلع بأعباء أعمال أبيه التجديدية والإصلاحية وتوسيع نطاقها وتكميلها بعده الشيخ عبدالعزيز الدهلوي (توفي ١٢٣٩هـ)، الذي استمر اثنتين وستين سنة يلقي دروسه المؤثرة في القرآن في مدينة مركزية كالعاصمة دلهي، وفي عهد خطير كالقرن الثالث عشر الهجري. وما كسبت هذه الدروس من نجاح وقبول، وما تحقق بها من إنجازات كبيرة في تصحيح العقائد والمفاهيم لا يوجد له مثيل.(٢٤)

وذكر الندوي أيضاً أنّ الأستاذ الفاضل الشيخ محمد أويس الندوي شيخ التفسير بدار العلوم – ندوة العلماء سابقاً – أخذ كتاب الإمام الدهلوي المسمّىٰ: (العقيدة الحسنة)، المطبوع بالفارسية، في مطبع مفيد عام بآكره، وقام بترتيبه مع تعليقات وحواشٍ اقتبس أكثرها من المؤلفات الأخرىٰ للإمام الدهلوي، وطبعه باسْم: العقيدة السّنية، في مطبع دار العلوم ندوة العلماء، عام ١٣٨٢هـ = ١٩٦٢م.

وذكر مؤلِّف كتاب (الثقافة الإسلامية في الهند) خدمة الإمام الدهلوي للحديث، التي تمتاز بمكانتها التجديدية والإصلاحية، والتي أدت إلىٰ ازدهار علْم الحديث في الهند، فأصبح جزءاً من المقررات الدراسية، وعمّ تدريس الصحاح الستة في المدارس، وقامت لتدريسه حلقات مستقلة، وبدأت تظهر شروح وتعليقات علىٰ كتب الحديث، فتكونت منها مكتبة كبيرة، وتُرجمت كتب الحديث ليستفيد منها العامّة والنساء، وكان ذلك دافعاً إلىٰ الجد، ومرغِّباً في الأسانيد وإجازات الحديث، فأصبحت الهند مركزاً لهذا العلم الشريف، قال السيد رشيد رضا في مقدمة كتاب: (مفتاح كنوز السنّة): "ولولا عناية إخواننا علماء الهند بعلوم الحديث في هذا العصر، لقضي عليها بالزوال من أمصار الشرق".(٢٥)

وتوافد طلاب العلم من جميع أنحاء الهند علىٰ مدرسة الدهلوي الرحيمية، التي أصبحت أكبر مؤسسة تعليمية في الهند، ودرسوا عليه علْم الحديث، فتخرّج منها كبار العلماء. لقد درس فيها من السِّند الشيخ محمد معين (توفي ١١٦١هـ)، وكتابه: (دراسات اللبيب في الأسوة الحسنة بالحبيب)، معروف، ويتجلّىٰ فيه ذوق الإمام الدهلوي ومنهج بحثه وتحقيقه، ودرس فيها من كشمير الشيخ خواجة محمد أمين الكشميري، ويعرف بمحمد أمين الولي، وهو من خواصّ تلامذة الإمام الدهلوي، فتأثّر ببحوثه وتحقيقاته، وصار السندي والكشميري من الدعاة الحاملين لدعوته، والمتمسكين بمنهجه. وكان ابنه الأكبر الشيخ عبد العزيز أحد تلامذته المستفيدين من علمه ومنهجه، ويعرف بمسند الهند الشيخ عبد العزيز الدهلوي، فقام بعده بتكميل جهود أبيه وتوسيع نطاقها. وكان أيضاً من تلاميذه مفخرةُ الهند العلامة السيد مرتضىٰ البلكرامي المعروف بالزبيدي (توفي ١٢٠٥هـ) صاحب معجم: (تاج العروس في شرح القاموس)، وكتاب: (إتحاف السادة المتقين بشرح إحياء علوم الدين)، الذي دوّىٰ صيته في العالم الإسلامي كله، وكان مجلسه بالقاهرة يضاهي مجالس السلاطين. وكان من خريجي هذه المدرسة الرحيمية بيهقيُّ عصره القاضي الشيخ ثناء الله الباني بتي (توفي ١٢٢٥هـ) خليفة الشيخ ميرزا مظهر جان جانان، ومؤلف: (التفسير المظهري)، وكتاب: (ما لا بد منه)، ومن تلاميذه في الرحيمية الشيخ إسحاق الدهلوي والشيخ عبد الغني المجددي، اللذين درّسا الحديث الشريف في الحرمين الشريفين، وانتفع بهما خلائق من العرب والعجم.(٢٦) وأثنىٰ عليه المحقق الفاضل الشيخ عبد الحق الحقاني في مقدمة ترجمته لحجة الله البالغة المسماة بـ نعمة الله السابغة، فقال: "إنّ الفنّ الذي أُلِّف فيه هذا الكتاب، لم يؤلّف فيه قبله شيء و لم يدوّن في مكان، فموضوع هذا الفنّ هو النظام التشريعي، وغايته أنْ يعْلم الإنسان أنّ أحكام الله تعالىٰ ورسوله صلىٰ الله عليه وسلم لا عُسْر فيها ولا ضيق، ولا تخالف الفطرة السليمة حتىٰ يطمئن بها الإنسان وينجذب إليها قلبه، ثقة منه بأنّها أحكام توافق الفطرة وتبنىٰ عليها، ولا يقع بتشكيك المشككين في الشبهات".

وقد أثرت جهوده الإصلاحية في تلامذته، وعلىٰ رأسهم ابنه عبد العزيز، الذي كان كوالده نابغًا في الحديث

والفقه، فحمل راية أبيه بعد وفاته، وتصدىٰ للإنجليز حين أخذوا يستبدون بالأمر ويقلّصون سلطات المسلمين، فأفتىٰ بأن الهند أصبحت دار حرب، وعلىٰ المسلمين أن يهبوا جميعاً للجهاد ضدّ الإنجليز، فكان لصيحات خريجي المدرسة الرحيمية ودار العلوم الأثر الكبير في بثّ روح الجهاد الإسلامي؛ حيث قاد العلماء الحركات الجهادية لإنقاذ المسلمين من ظلم الإنجليز والسيخ، وكان من أبرز العلماء الشهداء تلميذه: أحمد عرفان الشهيد، الذي تتلمذ علىٰ الشاه عبد العزيز الدهلوي وأخيه عبد القادر ابني ولي الله الدهلوي.(٢٧)

وهناك عدد كبير من العلماء الذين تأثروا بالكتاب واستشهدوا به في مؤلفاتهم من بينهم عبد الرحمن المباركفوري في مؤلفه (تحفة الأحوذي شرح سنن الترمذي). والآبادي: (عون المعبود شرح سنن أبي داود). والكشميري: (فيض الباري شرح صحيح البخاري). وصدّيق حسن خان: (الروضة الندية. والعرف الشذي شرح سنن الترمذي). وعبد الحي بن فخرالدين الحسيني: (نـزهة الخواطر وبهجة المسامع والنواظر). وخليل السهارنفوري: (بذل المجهود في حلّ أبي داود).

وجاء في (نـزهة الخواطر وبهجة المسامع والنواظر): عند حرف الخاء في ترجمة مولانا خليل أحمد السنبهلي، ومن مصنفاته: (آيات الله الكاملة) ترجمة حجة الله البالغة.

ومولانا عبيد الله السندي: وقضىٰ أيامه الأخيرة في الهند، يقضي مدة في دهلي ومدة في السند، يدرّس فيها حجة الله البالغة، وفي نـزهة الخواطر أيضاً، عند حرف الميم في ترجمة مولانا محمد أحسن النانوتوي: ومن مآثره الجميلة تصحيحه وتحشيته حجة الله البالغة، و(إزالة الخفاء عن خلافة الخلفاء) للشيخ ولي الله بن عبد الرحيم العمري الدهلوي المحدِّث، ثم نشرهما من دار الطباعة الصديقية له، والشيخ رحمة الله الهندي: درّس في المسجد الحرام كتاب حجة الله البالغة، واستشهد به في مواضع من كتابه إظهار الحق.(٢٨)

وذكر عبد العزيز الخولي في (مفتاح السنّة) تحت عنوان: حال السنّة في عصرنا الحاضر، أنه لا يوجد في الشعوب الإسلامية في هذا العصر مَن وفّىٰ الحديث قسطه من العناية مثل مسلمي الهند، فقد وجد بينهم حفاظ للسنّة دارسون لها علىٰ نحو ما كانت تدرس في القرن الثالث - حرية في فهم ونظر في الأسانيد - وهذا كان منهج تدريس الحديث ونقد الروايات للمحدّث السيد نذير حسين الدهلوي، والمحدّث حسين بن محسن الأنصاري، وإنّ أساس تلك النهضة في البلاد الهندية أفذاذ أجلاّء تمخضت بهم العصور الحديثة، وتكونت جمعيات سلكت سبيلهم وعملت علىٰ نشر مبادئهم، فكان لها ذلك الأثر الصالح والسبق الواضح، ومن أشهر هؤلاء الأعلام ولي الله الدهلوي صاحب التصانيف في اللغتين العربية والفارسية، وأشهرها حجة الله البالغة، والنواب السيد صديق حسن خان ملك بهوبال صاحب التصانيف الكثيرة أيضاً، الذي كانت تتجلّىٰ فيه روح الاجتهاد وحرية في الفهم والنظر في الأسانيد علىٰ المنهج السلفي، الذي نراه في مؤلفات الشاه ولي الله الدهلوي.(٢٩)

الخاتمة:

إن الدعوة التجديدية والإصلاحية التي تصدىٰ لها الإمام الدهلوي، وأفكاره الإصلاحية التي تضمنها كتابه القيّم حجة الله البالغة، تمثل محاولة لبعث الإسلام من جديد وإحياء امبراطورية المغول الإسلامية، للوقوف في وجه الأطماع الاستعمارية البريطانية المتزايدة، ونلتمس فيه تأكيداً علىٰ إحياء الخلافة الإسلامية، وذلك بتصديه لبيان وظيفتها في الإسلام، وشرح خصائص الخلافة الراشدة، وإيقاظ روح الإصلاح الشامل للأمة الإسلامية، ودعوة الجميع للنهوض بدور في الإصلاح والتغيير.

إن الرؤىٰ الإصلاحية التي نادىٰ بها الإمام الدهلوي في كتاب حجة الله البالغة تتجسد بالتأكيد علىٰ أهمية دراسة القرآن الكريم وفهمه وتدبره، والتركيز علىٰ بعث علم الحديث النبوي الشريف، والاهتمام بالعقيدة الإسلامية الصحيحة، والدعوة إلىٰ التوفيق بين المذاهب الفقهية وبين الحديث، واتخاذ موقف وسط بين التقليد والاجتهاد، والتركيز علىٰ أهمية الدور الملقىٰ علىٰ العلماء في توسيع دائرة التجديد وتنوعه.

المراجع

(١) استند الباحث في معلوماته حول هذا الجانب إلى المصادر الآتية:
- القَنُّوجي، أبو الطيب محمد صِدّيق خان. أبجد العلوم، بيروت: دار الكتب العلمية، علماء الهند، حرف الواو، ١٩٩٩م، ج٣، ص١٩٢-١٩٤.
- الندوي، عبد الحيّ بن فخر الدين الحسني. الثقافة الإسلامية في الهند، دمشق: مجمع اللغة العربية، ط٨، ١٩٥٨م، ص١١١.
- الندوي، أبو الحسن علي الحسني. سلسلة رجال الفكر والدعوة في الإسلام، الإمام الدهلوي، الكويت: دار القلم، ط١، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م، ج٤، ص٨٣-١٠٣. ونقل فيه عن كتب شاه وليّ الله الدهلوي التالية: الإمداد في مآثر الأجداد، ص٦٠، الجزء اللطيف في ترجمة العبد الضعيف، المطبوع بمطبعة لاهور، ص٢-٣، أنفاس العارفين، ص٦٢-٦٣.
- البغدادي، إسماعيل باشا. إيضاح المكنون في الذيل على كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، بيروت: دار الفكر، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م، ج٣، ص٦٥، ٣٩٢، ج٤، ص١٦١.
- البغدادي، إسماعيل باشا. هدية العارفين أسماء المؤلّفين وآثار المصنِّفين من كشف الظنون، بيروت: دار الفكر، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م، ج٥، ص١٧٧، ج٦، ص٥٠٠.
- الزِّرِكْلي، خير الدين بن محمود. الأعلام، بيروت: دار العلم للملايين، ط٦، ١٩٨٤م، ج١، ص١٤٩.
- كحالة، عمر رضا. معجم المؤلفين، بيروت: دار إحياء التراث العربي، ج١، ص٢٧٢، ج٤، ص٢٩٢، ج١٣، ص١٦٩.

(٢) استند الباحث في معلوماته عن طبعات الكتاب في معظمها إلى المواقع الإلكترونية التالية:
- www.neelwafurat.com - www.thakafa.biz
- www.libraries.najah.edu - www.daralzaman.com

(٣) للمزيد من التفاصيل انظر:
- الدهلوي، أحمد بن عبد الرحيم. حجة الله البالغة، بيروت: دار الكتب العلمية، ط٢، ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م.
- الندوي، سلسلة رجال الفكر والدعوة في الإسلام، الإمام الدهلوي، مرجع سابق، ص١٦٧-١٩٢.

(٤) الندوي، سلسلة رجال الفكر والدعوة في الإسلام، الإمام الدهلوي، مرجع سابق، ص١١٢-١١٣. نقلاً عن: مقدمة فتح الرحمن المطبوع بدلهي عام ١٢٩٤هـ.

(٥) المرجع السابق، ص١٣٦-١٤٤، وأشار الندوي إلى كتاب الدهلوي "الكلمات طيبات"، ص١٧٣. وإلى كتاب العلامة عبدالحي الحسني "الثقافة الإسلامية في الهند"، ص١٣٥-١٣٧. انظر أيضاً:
- الدهلوي، حجة الله البالغة، مرجع سابق، ص٤-٥.

(٦) الندوي، سلسلة رجال الفكر والدعوة في الإسلام، الإمام الدهلوي، مرجع سابق، ص١٢٨-١٣٣.

(٧) المرجع السابق، ص١٦٧-١٧١، ١٩٥-١٩٧.

(٨) المرجع السابق، ص١٥٣-١٥٤.

(٩) المرجع السابق، ص١٥٥.

(١٠) المرجع السابق، ص١٥٥-١٦٣ باختصار وتصرف شديدين. انظر كتبه: الحجة، ج١، ص٢٨٣-٢٩٠، الباب الرابع: باب حكاية أقوال الناس قبل المائة الرابعة وبعدها. التفهيمات الإلهية، ج٢، ص٢٤٢. الإنصاف، ص٣٨-٤١. وأشار الندوي إلى كتب الدهلوي: الخير الكثير، ص١٢٤. قرة العين، ص٢٤٢. فيوض الحرمين ص٦٢.

(١١) الندوي، سلسلة رجال الفكر والدعوة في الإسلام، الإمام الدهلوي، مرجع سابق، ص١٥٩-١٦٥. انظر أيضاً:
- الدهلوي، حجة الله البالغة، مرجع سابق، ص١٥٥-١٥٦.

(١٢) الندوي، سلسلة رجال الفكر والدعوة في الإسلام، الإمام الدهلوي، مرجع سابق، ص١٥٨-١٦٥. وأشار الندوي إلى مقدمة كتابيْ الدهلوي: المصفىٰ، بالفارسية، دلهي، طبع المطبع الفاروقي، ط٤، ص١٢، والوصايا بالفارسية، ص٢-٣.

(١٣) الندوي، سلسلة رجال الفكر والدعوة في الإسلام، الإمام الدهلوي، مرجع سابق، ص١٠٥-١٠٦ باختصار.

(١٤) المرجع السابق، ص١١٨، ١٩٣.

(١٥) المرجع السابق، ص٥٣-٥٧ بتصرف. وأشار الندوي إلى «نـزهة الخواطر»، ج٩.

(١٦) المرجع السابق، الهامش، ص١٦٨.

(١٧) المرجع السابق، ص١٦٨.

(١٨) المرجع السابق، ص١٩١-١٩٢ باختصار. وأشار الندوي إلى كتاب النعماني "علم الكلام"، ص١٠٩-١١١.

(١٩) القَنُّوجي، أبو الطيب محمد صِدّيق خان. الحطة في ذِكْر الصحاح الستة، بيروت: دار الكتب العلمية، ط١، ١٩٨٥م، ص ١٣٥.

(٢٠) المرجع السابق، ص١٦١-١٦٣.

(٢١) القَنُّوجي، أبجد العلوم، مرجع سابق، باب التاء، ج٢، ص١٢٢-١٢٣.

(٢٢) الندوي، سلسلة رجال الفكر والدعوة في الإسلام، الإمام الدهلوي، مرجع سابق، ص١١٩.

(٢٣) انظر موقع الوراق الإلكتروني:

- HYPERLINK» http//:www.alwaraq.net«/ www.alwaraq.net

(٢٤) الندوي، سلسلة رجال الفكر والدعوة في الإسلام، الإمام الدهلوي، مرجع سابق، ص٩٠، ١٢٠.

(٢٥) المرجع السابق، ص١٤٥. وأشار إلى كتاب "الثقافة الإسلامية في الهند"، الفصل الرابع من الباب الثاني، مصنفات أهل الهند في الحديث، ص١٤٢-١٦٠. انظر أيضاً:

- الندوي، أبو الحسن علي الحسني. المسلمون في الهند، دمشق: مكتبة دار الفتح، ط١، ١٩٨٢م، ص ٤٢.

(٢٦) الندوي، سلسلة رجال الفكر والدعوة في الإسلام، الإمام الدهلوي، مرجع سابق، ص١٤٩. وأشار إلى «نـزهة الخواطر»، ج٦، وج٧.

(٢٧) النمر، عبد المنعم. تاريخ الإسلام في الهند، ص١٢١.

(٢٨) الخولي، عبدالعزيز. مفتاح السنة، بيروت: دار الكتب العلمية، ط٤ ، ١٩٣٨م، ص١٦٥-١٦٦. وللمزيد من التفاصيل عن الإمام الدهلوي، انظر: ملتقى أهل الحديث:

- HYPERLINK» http//:www.ahlalhadeeth.com«/ www.ahlalhadeeth.com